الإســـــــلام
فى كتابات منصفة (*)

فى كتاب " محمد ".. سيرة النبى " الصادر بالإنجليزية فى نيويـــورك ١٩٩٢، وأقر مجمع البحوث الإسلامية ترجمته التى أجراهـــا الـــدكتوران محمد عنانى وفاطمة نصر - توطئ مؤلفتـــه الكاتبـــة البريطانيـــة كـــارين أرمسترونج، الراهبة السابقة والباحثة فى تاريخ الأديان - تـــوطئ لكتابيـــا المنصف الموضوعى - بفصل مستفيض عن جذور العـــداء فـــى الغـــرب لرسول الإسلام بعنوان " العدو محمد " !.. لتستأصل ببحثها الموضـــوعى شأفة المفاهيم المغلوطة التى تراكمت مع هذا العداء وصارت كالأســـاطير التى لا يحاول أحد مناقشتها هناك !.. من الغريب أننا مع عنايتنا بترجمـــة هذا الكتاب إلى العربية، لم نلتفت لترويج نسخه الإنجليزية، مـــع أن ذلـــك متاح بأموال النفط الفائضة بالمليارات، ما عليها سوى أن تروج التوزيع - ولو مجانا! - بالغرب، ليرى الغربيون بلغتهم وأسلوبهم ومفـــاهيمهم كيـــف تراكمت المغالطات المضلة فصارت تلالا ثم جبالا باتت تحجـــب الرؤيـــة وتسلس إلى التجاوزات المتتابعة التى سوف تفتح أبوابا لن تنغلق للـــصراع بين الأديان !

---

* الأهرام ٢٠٠٨/٦/١٢، ٢٠٠٨/٦/٢٦

معرفة وفهم تراكمات وجذور المغالطات، وكيف شكلت منظور كثير من الغربيين عن الإسلام ورسوله، ضرورة بالغة الأهمية لتوجيه الخطاب إليهم، بلغتهم لا بلغتنا، وهى غاية جاءتنا على الجاهز فى كتاب الراهبة البريطانية السابقة كارين أرمسترونج الموضوعى المنصف. فيه تتبعت جذور العداء والصورة المغلوطة التى أخذت تتراكم فى الغرب ضد الإسلام ورسوله !.. كيف اعتقد يولو جوليو وألفارو - وغيرهما أن سطوع نجم الإسلام ما هو إلا إشارة لقدوم المسيخ الدجال، وهو "الدجال العظيم" الذى ورد وصفه فى العهد القديم، والذى ينذر حكمه بحلول الأيام الأخيرة للبشرية. وكيف جعل البعض يفسرون ما ورد فى سفر "رؤيا يوحنا اللاهوتى" عن وحش عظيم، يخرج من الهاوية ويتوج نفسه على عرش جبل المعبد، ويحكم العالم - بأنها نذير يطابق مقدم " محمد " الذى أتى بعد المسيح، ويومئ إلى انتشار الدين الذى جاء به، وإلى فتح المسلمين بيت المقدس، وبنائهم مسجدين عظيمين على جبل المعبد، وأن إقبال المسيحيين على هذا الدين الجديد ما هو إلاّ ارتداد وهرطقة ! حتى جعل بعضهم يتساءل : " كيف سمح الله لهذه العقيدة (الكاذبة) بالظهور والانتشار ؟ ترى هل تخلى الله عن مناصرة شعبه وأهله " ؟!

على مدار سنين، فيما فصلته كارين أرمسترونج، توالت صيحات التهجم المحمومة ضد نبى الإسلام، مدفوعة بالوهم الذى سيطر على الأذهان بالتفاسير المغلوطة " للرؤيا "، والرعب الذى طفق يسيطر أن " محمداً " - عليه السلام - دجال كاذب، نصب نفسه نبياً ليخدع العالم، وجعلت هذه الأوهام الكاذبة تصور نبى الإسلام بأنه فاسق يستمرئ الفسق البذىء، ويدفع أتباعه إلى محاكاته، ويجبر الناس بحد السيف على اعتناق

عقيدته. أما الإسلام فليس ديناً مستقلاً أو منزلاً، بل بدعة وصورة مشوهة من صور المسيحية، تؤمن بالعنف والسيف، وتمجد الحرب والقتل !

تعقب الراهبة البريطانية السابقة : كارين أرمسترونج - بأن هذه الأساطير الغربية، عادت إلى الظهور بعد ٢٥٠ سنة وأوروبا توشك على العودة للساحة الدولية، ولتعيد رسم هذه الصورة الوهمية الخيالية لنبي الإسلام الذى حُرف اسمه إلى " ماهوند " Mahond، وأصبح مع انتشار هذه الأوهام على المستوى الشعبى - العدو الأكبر للهوية الغربية الناشئة ! وصار - فيما تقول المؤلفة : " يرمز لكل ما نتمنى أن ننفيه عن ذواتنا. ولا تزال آثار الوهم القديم قائمة حتى يومنا هذا. إذ لا يزال الشائع عند الغرب أن يسلموا دون نقاش بأن محمداً ليس سوى رجل " استغل " الدين فى تحقيق الفتوحات وسيادة العالم، وأن الإسلام دين عنف يعتمد على السيف، وذلك على الرغم - والكلام للمؤلفة - من وجود دراسات علمية وموضوعية كثيرة عن الإسلام ونبى الإسلام تثبت خطل هذه الأسطورة المرتبطة " بماهوند " !

تتوقف الباحثة البريطانية، فى استقصائها تراكم عداء الغرب للإسلام، واستشراءه عن جهالة وسوء فهم واستسلام للأساطير.. تتوقف عند موجات الحروب الصليبية التى تزامنت مع شن الحروب من الشمال ضد مسلمى الأندلس، وقيام البابا أوريان الثانى باستدعاء فرسان أوروبا عام ١٠٩٥ لما أسماه تحرير قبر المسيح فى أورشليم. تبرز كارين أرمسترونج كيف تفصح ملحمة " أنشودة رولان " التى ألفت فى زمن الحملة الصليبية الأولى عن جهل فاضح بالطبيعة الأساسية لعقيدة المسلمين، إذ صورتهم " عابدى أصنام " يركعون للآلهة " أبولو " و

" تيرفاجان " و " محمد " !!.. وأنهم وباء وقذارة ينبغى تطهير الأماكن المقدسة منهم !!

تكشف أرمسترونج كيف صنعوا " أسطورة ماهوند " عدو الممالك المسيحية، وكيف صارت هذه الأسطورة الزائفة راسخة فى مخيلة أبناء الغرب، وكيف أدى هذا الوهم الكاذب الخيالى " لشخصية ماهوند " (نبى الإسلام) - إلى زيادة الصعوبة التى يواجهها الغربيون اليوم إذا حاولوا النظر إليه باعتباره - على الأقل - شخصية تاريخية جديرة بالدراسة التى يولونها لنابليون أو للإسكندر الأكبر !

يستغرب كل عاقل، مقدار خيبة الأساطير التى شكلت الوجدان الغربى بعامة عن رسول القرآن عليه السلام. فهو فى هذه الأساطير ساحر دبر "معجزات " زائفة ليخدع العرب السذج ويدمر الكنيسة فى أفريقيا والشرق الأوسط. تتحدث إحدى الحكايات عن نور أبيض أثار الذعر ثم ظهر آخر الأمر بالقرآن الذى أتى به محمد إلى العرب، وأخرى تروى أن محمداً قام بتدريب حمامه على التقاط حبات البازلاء من أذنيه ليبدو للرائى كأن روح القدس تتنزل عليه. مهما غضبت فلن تستطيع إلا الإشفاق على تصديقهم هذه الخزعبلات التى اصطنعها مغرضون لم يجدوا تفسيراً لنجاح الإسلام إلا بإنكار الوحى وتصويره أنه مجرد هرطقة أو فرقة خارجة على المسيحية، وهى أوهام تراكمت فى تكوين القلق من الإسلام ثم العداء له وللمسلمين.. سطروا بها صفحات مخجلة لا يتسع المقام هنا لتفصيلها !!.. يكفى أن تعرف أن دانتى الذى يتشدق كثيرون بعبقريته فى الكوميديا الإلهية، قد صور فيها محمداً - عليه السلام - فى الدرك الثامن من الجحيم فى عذاب مهين مع أرباب الفتنة التى أحدثت

الانشقاق الدينى !!.. قريب من هذا الفكر الملبوس ما وقع فيه مارتن لوثر والبروتستانت وآخرون من بعدهم درجوا - حتى فى عصر النهضة - على نعت الإسلام " بالمذهب المحمدى " ونعت رسوله بأنه : " الدجال " الشهير بمحمد، أو بأنه النبى الكاذب، وإطلاق مسمى " المحمدية " Mohamadism بدلا من " الإسلام ".. وهو ما صار يجرى الآن فيما تمد به الولايات المتحدة شبكة الإنترنت، متوهمة أنها بذلك تستطيع أن تخفى الإسلام الذى عم المعمورة ويتزايد معتنقوه كل يوم فى أمريكا ذاتها !

تستعرض كارين أرمسترونج بعض مؤلفات الغرب الغارقة فى التجنى والزيف والوهم، حيث لم تبدأ محاولات التخلص منه، إلاّ مع ترجمة معانى القرآن وتوالى الدراسات التاريخية الموضوعية التى شهد القرن ١٨ بعض جهودها الرامية إلى تفهم أكثر للإسلام.. ككتاب " تاريخ المسلمين " لسايمون أوكلى (١٧٠٨)، وكتاب " أخلاق الأمم وروحها " لفرانسوا فولتير (١٧٥١)، واستشفاف المستشرق الهولندى يوهان يعقوب رايسكى (ت ١٧٧٤) للمسحة الربانية فى حياة محمد ونزول الإسلام، وثناء ادوارد جيبون على عقيدته التوحيدية بكتابه " تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية "، ومحاضرة كارلايل " البطل باعتباره نبياً " التى دافع فيها دفاعا حارًّا عن محمد عليه السلام - منكراً أوهام القرون الوسطى، وضمَّنها كتابه المعروف عن البطولة والأبطال (١٨٤١).

لم تنقطع للأسف زيوف الأوهام القديمة برغم هذه الكتابات الموضوعية، فبقيت تدلى بدلوها فى تأجيج التعصب والكراهية للإسلام، مثلما فعل شاتوبريان فى كتابه : " الرحلة من باريس إلى أورشليم ومنها

إلى باريس " (١٨١٠/١٨١١) الذى بشر فيه ــ بخياله الصليبى ــ بوجوب سيطرة الغرب على العرب أرباب الهمجيــة والوحــشية !! هــذا العــرق الملبوس الممدود الذى عبر عنه الجنرال اللنبى عام ١٩١٧ حين أعلن وهو على أعتاب القدس : " الآن قد اكتملت الحملات الصليبية !!

هذا هو ما كشفته كارين أرمسترونج - الراهبة السابقة - الباحثة فى تاريخ الأديان فى كتابها الرائع : " سيرة محمد ".. ومع موضوعية وروعة ما كتبته إنصافا للنبى والوحى، ولسيرته ودعوته، فظنى أن أخطر ما فــى الكتاب ما كشفته عن قدم أثر الأساطير الغربية فى تشكيل الوجدان الغربى بعامة إزاء الإسلام ورسوله.. هذه الأساطير التى تجــذرت حتــى بــات الكثيرون هناك يقبلون الفكر الملبوس عن الإسلام بلا مناقشة، لا ينجو من الوقوع تحت تأثيره المغلوط إلا قليلون قرءوا وتمعنوا وفهمــوا، بعــضهم أفصح كما فعلت، وبعضهم اشترى راحته بالسكوت !!!

مرة ثانية. ليست الغاية مقابلة العداء بعداء، فذلك يجافى الإسلام، ويفــوت فرصة البيان والإيضاح. مقصدى أن نفهم الصورة هناك.. كيف أنها أوسع كثيراً من رسم مسىء أو شريط فيديو، وندرك أن رؤيتها بكل جوانبها، هى الكفيلة بوضع رؤية شاملة، مدروسة لا عشوائية، تواجه هذا التجنى المبعد عن الحقيقة والإنصاف، وسيلة مواجهته الأولى تصحيح صــورة وســلوك المسلم ذاته فى عيون الغرب، ومعها خطاب مدروس ومتواصل، بلغــتهم ومنطقهم، يخاطب العقل بالحجة والبرهان، ويفوت فرص الإساءة الجاهلــة أو المتعمدة، ويبطل موجات الكراهية والشحن ضد الإســلام والمــسلمين، ويفتح منافذ لفهم متبادل لا غناء عنه للبشرية فى هذا الزمان، وفــى كــل زمان !

من الفوارق الكبيرة بين اليوم والبارحة، أنهم كانوا بأمس يفهمون أبعاد القضية ومساحة العداء للإسلام ورسوله وللمسلمين، ويملكون وسائل وأدوات التصدى لكثير من اللغو الذى حفلت به من قرون كتابات الغرب من افتراءات وخرافات وعداء دفين ضد الإسلام ورسوله مما تغدو معه الرسومات المسيئة كقطرة في محيط.. لم يحصر آباؤنا وأجدادنا أنفسهم في صراخ أو تظاهر أو ولولة، وإنما استنطقوا مخزون علمهم، وشرعوا أقلامهم بالعربية وبغير العربية - لبيان شامل محيط لا يتمحور في محض رد فعل متشنج أو حتى غير متشنج، وإنما يتسع بفهم وعلم وحجة ليقدم لقراء العربية ولغيرهم بياناً وبحوثا شافية تعرف بحقيقة الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم، وتحض المسلم ذاته على أن يكون بسلوكه صورة مشرفة للإسلام.

وقد رأينا في كتاب حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل صورة لافتة للإحاطة بما كتبه عن الإسلام ورسوله - المستشرقون والمبشرون، والمنصفون وغير المنصفين وهم أكثر، ولكتابات كتاب الغرب بعامة - أعانه على ذلك إلمامه بالإنجليزية والفرنسية، ووعيه لمعرفة جذور هذه الضغينة التى يحملها الغرب للإسلام.

ظنى أن علو حناجرنا جاء على حساب دور عقولنا. أشعر بالخجل من الحاضر حين أجوب مثلا فى دوحة العقاد، فأرى حجم وعمق ما قدمه هذا العملاق للإسلام بلا صخب ولا ضجيج ولا انفعال. هل تذكرنا فى ردود أفعالنا الصاخبة بلا طحن، ماذا فعل العقاد فى كتاب واحد : " ما يقال عن الإسلام " ؟!.. فى أكثر من ثلاثين مقالاً، جاب أركان الأرض غرباً وشرقاً، وجنوباً وشمالاً، فى أوروبا وأفريقيا وآسيا وأمريكا، واستقصى

العشرات من الكتابات هناك عن الإسلام وقرآنه ورسوله.. يقول فى تقديمه للكتاب إن صفحاته مجموعة من المقالات عن الكتب التى ألّفها كتاب الغرب عن الإسلام من شتى وجهات النظر، وإنه اختار الأكثر شيوعا واعتبارا فى العصر الحديث، ليلخصها ويعقب عليها ويناقش ما يحتاج منها للمناقشة، وجمعها فى كتابه ما يقال عن الإسلام يبتغى بها المزيد من التعريف بالإسلام والبحث عن حقائقه وأباطيل خصومه، لعلها تغنى طلاب المعرفة من القراء فى الأمم الإسلامية.

يتناول العقاد فى مقالاته المتنوعة، الإسلام والعصر الحديث، والإسلام والثقافة الأفريقية، ويوضح الفارق بين العقيدة الإلهية فى الإسلام وغيره من الأديان، والفارق بين الأديان المغلقة كاليهودية.. وبين الأديان المفتوحة أو أديان الدعوة كالإسلام، وأوضاع وقضايا المسلمين السود فى أمريكا، ومفهوم الجهاد فى الإسلام.. وأغلاط المبشرين فى نقد القرآن.. وغير ذلك من الموضوعات التى خاضت فيها كتب الغربيين. فهل كل هذه الأشتات صادرة عن نية واحدة أو قصد واحد ؟ يتوقف العقاد عند هذا السؤال ليقول : إن المهم فى هذه الكتابات هو محك الإخلاص فى كتابتها. فمن هم المخلصون منهم ؟ ولماذا يخلصون ؟

المخلصون إما طلاب معرفة أو طلاب عقيدة، وقد يجمعهما طلب الحقيقة فى عالم العلم وعالم الضمير، وفيما عدا هؤلاء يندر الإخلاص فى كتابات الذين عرضوا فى الغرب للمسلمين أو لما اعتقدوه أو تعودوه، ولكنهم فى قلة الإخلاص أو سوء النية أنواع ودرجات !.. عن هؤلاء وأولاء دبج العقاد مقالاته بيانا لحقيقة الإسلام ودحضا لدعاوى المتعصبين والماديين والملحدين والمبشرين الذين لا يقلون عداوة للإسلام عنهم. ظنى

أنه فضلا عن الأثر العميق لهذه البحوث التى كتبها العقاد فى أمم الإسلام، فإن ترجمتها إلى اللغات الغربية قمينة بتجلية صورة وحقيقة الإسلام هناك، ودحض الدعاوى والحملات والأغلاط سواء حركها العداء أم الجهالة أم نضوب المعرفة !

تذكرت وأنا أتابع قارئا أو كاتبا، حملات الإساءة للإسلام ــ ماكتبه العقاد فى كتابه " الإسلام دعوة عالمية " عن آراء كتاب الغرب فى نبى الإسلام فأشار إلى كتاب " القادة الدينيين " Religious leaders.. من تأليف هنرى توماس ودانالى توماس..بدأ ترجمتهما لنبى الإسلام قائلين : " فى القرن السابع، حين بدا على الدنيا أنها أصيبت بالجفاف، وحين فقدت اليهودية مولدها واختلطت المسيحية بموروثات الأمم الرومانية البربرية، نبع فى المشرق - فجأة - ينبوع صاف من الإيمان ارتوى منه نصف العالم... وإن حكمة الله لعجيبة ذات قوة فى قضائها العجيب، فإن هذا الينبوع الصافى قد انبثق من أجدب بقعة بين بقاع الأرض قاطبة : صحراء الجزيرة العربية.. وتروى الأخبار المأثورة كثيراً من المعجزات والخوارق التى صحبت مولد محمد وطفولته، ولكن محمداً لم يذكر هذه المعجزات ولم يذكر قط معجزة متصلة بشخصه أو برسالته، لأنه لم يأت كما قال بغير معجزة واحدة هى معجزة القرآن الذى تلقاه من وحى الله.. وقد جاء بالدين ليدعو إلى ملة إبراهيم وموسى والمسيح على هدى جديد ".

يصف المؤلفان نبى الإسلام بأنه " كان محبا لإخوته من بنى الإنسان، بسيطا فى معيشته يأكل خبز الشعير ويخدم نفسه وإن اجتمعت له أسباب الثراء، ويتورع أن يضرب أحدا أو يسوءه بكلمة تقريع.. ولم يغتفر لنفسه أنه أعرض ذات مرة عن سائل ضرير.. وقد حاول أن يقابل كراهة أعدائه

بالحب لأنه يعلم الناس أن أحب الخلق إلى الله أحبهم إلى خلق الله، ولكن عباد الأوثان بمكة لم يستمعوا لدعوة الحكمة والمحبة ونظروا إليه فلم يفهموا من قوله ولا عمله إلا أنه ثائر عليهم يسفه أحلامهم ويحطم أصنامهم، فصادروه وتوعدوه واعتدوا على حريته وأوشكوا أن يعتدوا على حياته ".... " إن صاحب الدعوة الإسلامية لم يبدأ المخالفين له بالحرب، بل هم الذين بدأوه بها واضطروه إليها، وكان من خلائقه المعروفة أن يرحم الضعيف، ويأمر بالرحمة، ويرفق بالحيوان، وينهى عن التحريش بين البهائم، ويدعو أتباعه إلى ادخال السرور على قلوب المحزونين، وهو القائل : " أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سرورا أو تقضى عنه دينا أو تطعمه خبزا "... وهو القائل : " فكوا العانى وأجيبوا الداعى ".

أشار المؤلفان إلى الخبر الذى ورد عن وقوف النبى لجنازة اليهودى، وإلى الأخبار الكثيرة التى وردت عن أدبه عليه السلام فى معاملة الضعفاء والأتباع، ومعاملة اليتامى والأيامى فقالا : " إن هذا الأدب هو أدب النبوة الإسلامية فى لبابها، وليس أدب القتال عنوانا لها كما حسب بعض الناقدين للإسلام على السماع ". أما الجهاد، فهو فريضة يؤمر بها المسلم ويتعلم معها من نبيه أن " أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه ".

يقول هنرى ودانلى توماس فى ختام السيرة : " الإسلام لا يخاصم الديانات الأخرى، بل هو دين يجمع ويؤلف، ولا يطرد أو يستثنى، ومن أدب المسلم أن يحترم عقائد غيره، وأن يؤمن بأن العالم أمة واحدة تدين لإله واحد، هو رب العالمين ".

يورد العقاد فى كتابه الضافى " عبقرية محمد " مقارنة عقدها العالم الأوروبى الدكتور ماركس دودز Marcus Dodds فى كتابه

"محمد وبوذا والمسيح " - Mohammed , Budda and Christ في هذه المقارنة يقول العالم الأوروبى : -

" أليس محمد نبيا على وجه من الوجوه ؟ " ثم أجاب قائلا : " إنه على اليقين لصاحب فضيلتين من فضائل الأنبياء : فقد عرف حقيقة عن الله لم يعرفها الناس من حوله، وتمكنت من نفسه نزعة باطنية لا تقاوم لنشر تلك الحقيقة، وإنه لخليق فى هذه الفضيلة أن يسامى أوفر الأنبياء شجاعة وبطولة بين بنى إسرائيل، لأنه جازف بحياته فى سبيل الحق، وصبر على الإيذاء يوما بعد يوم عدة سنين، وقابل النفى والحرمان والضغينة، وفقد مودة الأصحاب بغير مبالاة. فصابر على الجملة قصارى ما يصبر عليه إنسان دون الموت الذى نجا منه بالهجرة، ودأب مع هذا جميعه على بث رسالته غير قادر على إسكاته وعدّ ولا وعيد ولا إغراء.. وربما اهتدى إلى التوحيد أناس آخرون بين عباد الأوثان، إلا أن أحدا آخر غير محمد لم يقم فى العالم مثل ما أقام من إيمان بالوحدانية دائم مكين، وما أتيح له ذلك إلا لمضاء عزمه أن يحمل الآخرين على الإيمان. فإذا سأل سائل : ما الذى دفع بمحمد إلى إقناع غيره حيث رضى الموحدون بعبادة العزلة ؟ فلا مناص لنا أن نسلم أنه هو العمق والقوة فى إيمانه بصدق ما دعا إليه ".

والحقيقة التى يراها المنصف مسلما كان أو غير مسلم - أن رسول القرآن عليه السلام قد جاءه الإغراء الذى أشار إليه العالم الأوروبى فى أحوال كثيرة فما تغير.. جاءه الإغراء وهو داع مهدد فى سربه، وجاءه وهو عزيز الشأن بين المؤمنين بدعوته، فما حفل بالإغراء وهو بعيد من مقصده ولا حفل له وهو واصل إليه !

فهل وعينا أن صورة وسلوك المسلم، هما أساس وآية رسالة الإسلام إلى الدنيا، والتفتنا إلى أمثال هذه المؤلفات المكتوبة أصلا بلغات الغرب ولمؤلفين غربيين، والتفتت إليها الهيئات الإسلامية التى تملك المال والإمكانيات، لتتدبر الوسائل لبث هذه الكتابات إلى أوروبا والأمريكتين بدلا من الاحتجاجات الصاخبة المتشنجة التى سرعان ما تتلاشى بلا طحن ويطمرها النسيان، بينما فى كتاباتهم بأقلام المنصفين منهم ما يصد ويفحم حملات الإساءة والكراهية، ويجلى الصورة الصحيحة المنصفة للرسول وللإسلام الذى يعم المعمورة دينا هاديا للعالمين إلى يوم الدين !